المهم أن تكون إنساناً

د.سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

جاء مضمون الخبر على المنوال التالي: «هذه الصورة التقطت خلال المجاعة في السودان سنة 1994، وحصلت على جائزة بولتزر، حيث يزحف هذا الطفل الذي ضربته المجاعة وأنهكت جسده النحيل، باتجاه مخيم للأغذية يبعد عنه بكيلومتر. والنسر، الذي لا يأكل إلا الجيف يقف على مقربة منه ينتظر موته حتى يأكله. هذه الصورة هزت العالم، ولا يعرف أحد ما حدث للطفل بعد ذلك ....بعد ثلاثة أشهر، وُجد المصور كيفن كارتر، منتحرًا ربما متأثرًا بهذا المنظر، وما يحمله من كآبة وإحباط».

في عالمنا العربي، يظل أشهر مثال، يعكس هذا النوع النادر من رهافة الحس الإنساني، إقدام الشاعر اللبناني خليل حاوي على الانتحار، بحيث خرج إلى شرفة نافذة وأطلق النار على نفسه، احتجاجًا على اجتياح الجيش الإسرائيلي سنة 1982، لعاصمة عربية تسمى بيروت.

شهر نوفمبر 1965، انتحر الأمريكي نورمان موريسون، بالنار أمام مكتب وزير الدفاع، معلنًا رفضه للحرب التي تخوضها جيوش بلده، ضد الشعب الفيتنامي.

شهر يناير 1969، أقدم طالب فلسفة تشيكوسلوفاكي، يسمى جان بالاك على إضرام النار في جسده علانية، وسط ساحة وينسيسلاس تحولت فيما بعد إلى مزار، معلنًا بطريقته أيضًا رفضه القاطع، أن تقتحم دبابات الاتحاد السوفياتي بلده، وتقمع ثورة ألكسندر دوبشيك السلمية. هكذا،لا يمكن التأريخ لربيع براغ دون الوقوف عند تضحية بالاك الأسطورية.

يوم 16 مارس 2003، ستسحق عمدًا وبطريقة في غاية الوحشية، جرافة إسرائيلية، جسدًا نحيفًا تسكنه إنسانية هائلة، لشابة أمريكية تدعى راشيل كوري، عضوة حركة التضامن العالمي، سخرت وتهكمت من موت الضمير البشري، فشدت الرحيل كي تتضامن مع الفلسطينيين، على أرض الواقع، خلال انتفاضتهم الثانية ضد الاحتلال.

يوم الجمعة 17ديسمبر2010، أحرق التونسي محمد البوعزيزي نفسه، أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، محتجًّا على اغتيال كرامته بعد أن صفعته الشرطية فادية حمدي أمام الملأ، وشتمته بالكلمة البذيئة: . dégage حريق، سيشعل حرائق مستمرة حتى الآن، في جسد التاريخ والجغرافية العربيتين المعاصرتين.

يقال أيضًا: إن امرأة مجهولة الهوية، أكثر من تنظيرات فولتير وروسو، من أشعل فتيل شرارة الثورة الفرنسية، حينما أسرعت بالخروج إلى الشارع محتجة، تطالب بالخبز....

حصل المصور الفوتوغرافي كيفن كارتر على هذه الصورة على جائزة بولتزر

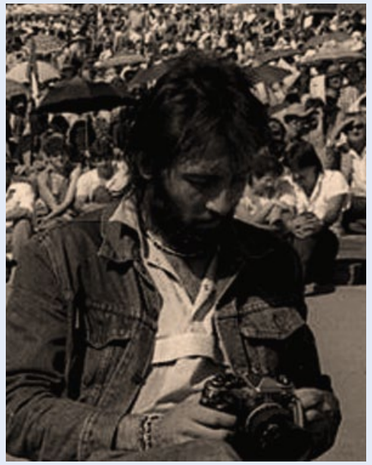

المصور كيفن كارتر

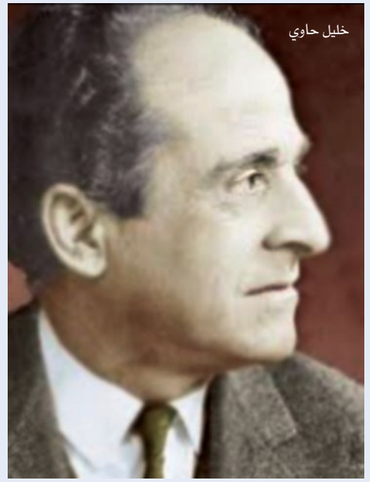

خليل حاوي

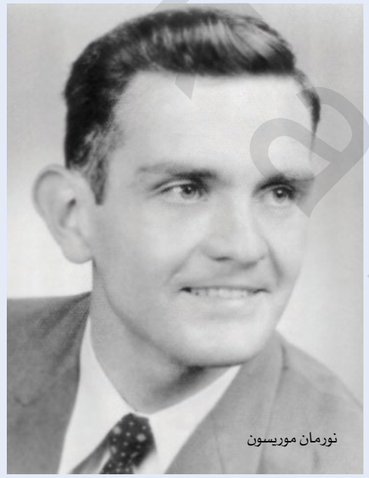

نورمان موريسون

يكفي أن تكون إنسانًا حقًّا، كي يبدأ العالم انسيابه اللين، وإنسانية الفرد تتجلى هكذا، دونما ضرورة إلى هضم قبلي لنظريات أخلاقية أو دعاية لأكليشيهات جاهزة، بل يجدر تحققها عفويًّا على السليقة. تتسامى، المسألة على كل الشروط الذاتية والموضوعية والتصنيفات المعيارية والمواضعات. هي، حالة تجري مجرى الماء، لقيم الحق والخير والشجاعة والتسامح والنبل والإباء....

حينما يستيقظ المرء صباحًا، ويتملى بأناة شاعرية وجهه في المرآة، سيلاحظ بتفرس، فعل تعرية الزمان المر وما صنعته بفروة سحنته. سنوات انقضت من عمره وذابت ربما بين تلابيب ذاكرة النسيان، وربما كذلك، على غفلة ودون إدراك، لحظتها قد يتساءل: أين إنسانيتي، من كل هذا؟ لا سيما، ونحن في حقبة دقيقة. ما هي درجات، تبلورها؟ كيف لي أن ألمس معانيها ودلالاتها، على الرغم من كل ما يحول بين المرء ونفسه، المرء وحقيقته، المرء وممكناته؟ سلوكات، على مقتضيات ومواضعات استيلابية، تسطو على حرية الفرد، فتضيع آدميته.

إن تربية الشعوب وارتقاءها، يبدءان جوهريًّا، من النزوع الأنطولوجي لأفرادها صوب جعل ذواتهم، سؤالاً لا نهائيًّا. لكن، كي لا يصاب المرء بالقرف والضجر، حين اختبار ذاته، باستفهام اعتراضي: لماذا أتيت إلى هذا العالم؟ ماذا أصنع هنا؟ ما المبررات؟ بوسعه، التخلص من هذا التيه، بإشكال مغاير: إن الحياة والموت، بمثابة صراع أبدي بين الزمانين الذاتي والوجودي. أين يبدأ الموت، ومتى تنتهي الحياة؟ من ثم، يستحيل وضع الثنائي موت- حياة، ضمن إطار تعريفي قائم كليًّا، تحترم داخله المعايير.

لا شك، أن النماذج البشرية الاستثنائية، التي أشرت إليها على سبيل التمثيل فقط، لا الحصر، احتفظت وتحتفظ وستحتفظ بها ذاكرة التاريخ دائمًا، دونما ملايين البشر الآخرين، لأنهم جسدوا السلوك الذاتي النوعي، المؤشر على الانسجام المطلق بين الفرد ومماهيته

> يكفي أن تكون إنسانًا حقًّا، كي يبدأ العالم انسيابه اللين، وإنسانية الفرد تتجلى هكذا، دونما ضرورة إلى هضم قبلي لنظريات أخلاقية أو دعاية لأكليشيهات جاهزة

> وأنت، تلقي ببسر، لقمة طرية في فمك، تذكر بشرًا كثيرين، يتلاشون جوعًا خلال الآن ذاته، ثم لا يتذوقون أملاً. حينما، تدير بسرعة، قفل باب منزل جميل ونظيف، يقيك أهوال ما يحدث على امتداد العراء، صيفًا وشتاءً، فلا تنسى أبدًا أن غيرك قد تنكرت لهم بلا شفقة جميع الشرائع الأرضية، ولم تقبل بهم غير حفر الجرذان، كي تتقاسم معهم مجاري المياه. تذكر جيدًا، وأنت تنام حالما بملء جفونك، أن بشرًا لا يعرفون لحقهم في النوم سبيلاً، مربوطين بسلاسل كالدواب إلى جدران زنازين ومستشفيات للأمراض العقلية، يئنون باستمرار وجعًا واحتقارًا